

المؤنسن الدكتور نزهه لول راغب محمد المنجاري



يشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى المكون وإلى العديد من مكوناته (السماءات والأرض، وما بكل منها من صور الأحياء والجمادات، والمظواهر الكونية المختلفة) وتأتي هذه الإشارات في مقام الاستدلال على المقدرة الإلهية التي لا تحددها حدود، وعلى العلم والحكمة البالغين في إبداع هذا المكون، وذلك في معرض محاجة المكافرين والمشركين والمتشككين، وفي إثبات حقيقة الملوحة لرب العالمين. [١] وعلى ذلك فإن الآيات الكونية في القرآن الكريم لم تأت من قبيل الإخبار العلمي المباشر وذلك لسببين:

أولهما: أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي من القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصورات صحيحة بجهده منفردًا، بل الإنسان يحتاج فيها دومًا إلى الهدایة المربانية، وإلى الوحي السماوي. [٢] وثانيهما: أن المعرفة على المكون واستقراء سنن الله فيه، وتتوظيف تلك المعرفة والسنن في عمارة الحياة على الأرض، وفي القيام بواجب الاستخلاف فيها قد تركت كلية الاجتهاد الإنسان عن طريق ملاحظاته المنظمة، واستنتاجاته المنطقية على فترات طويلة من الزمن، نظرًا لاطراد السنن الإلهية، ولحدود القدرة الإنسانية وللطبيعة التراكمية للمعرفة العلمية. ولكن لما كان القرآن الكريم هو كلام الله الذي أبدع هذا المكون بحكمته وقدرته، ولما كان من المحال أن يتعارض واقع الخلقة مع حديث خلقها عنها، كان ثابد وأن تحتوي الآيات القرآنية التي تتعرض للكون ومكوناته على عدد من الحقائق التي لو استفاد بها المسلمون لكان لهم قصب المسبق في اكتشافها. ومن هذه الآيات الكونية في كتاب الله ما يتعرض للأرض، التي جاء ذكرها في أربعين آية واحدة وستين آية كريمة، منها ما يشير إلى الأرض ككل، ومنها ما يشير إلى سطحها المخارجي الذي نحيا عليه أي إلى غلافها المصكري، وهذه الآيات التي تضم عدداً من حقائق علوم الأرض يمكن تبويبها في المجموعات التالية:

١- آيات تأمر الإنسان بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بده الخلق، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض.

٢- آيات عديدة تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض، منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يؤكد على عظم موقع النجوم، أو على حقيقة اتساع المكون، أو على بده المكون ب مجرم واحد (مرحلة المرتق)، ثم انفجر ذلك الجرم الأولى (مرحلة المفتق)، أو على بده السماء في مراحل خلقها الأولى بغاللة دخانية (مرحلة المسديم)، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين النجوم) أو على تطابق كل السماءات والأرض (أي تطابق الكون).

٣- آية قرآنية واحدة تؤكد على أن كل الحديد في كوكب الأرض قد أنزل إليها من السماء.

- 4- آية قرآنية تؤكد على حقيقة أن الأرض ذات صدع، وهي من المصفات الأساسية لكونكينا.
- 5- آيات قرآنية تتحدث عن عدد من المظواهر البحرية الهامة من مثل ظلمات البحر والمحيطات (ودور الأمواج الداخلية والخارجية في تكوينها)، وتسجّر بعض هذه المظواهر بنيان حامي، وتميّز المياه فيها إلى كتل متجاورة لا تختلط اختلاطاً كاملاً، نظراً لوجود حواجز غير مرئية تفصل بينها، ويتأكد هذا الفصل بين الماءتين بصورة أوضح في حالة التقائه كل من المياه العذبة والمالحة عند مصادر الأنهر، مع وجوده بين مياه البحر الواحد أو بين البحر المتصل ببعضها البعض.
- 6- آيات قرآنية تتحدث عن الجبال، منها ما يصفها بأنها أوتاد، وبذلك يصف كلاً من الشكل الخارجي (الذي على ضخامته يمثل الجزء الأصغر من الجبل) والامتداد الداخلي (الذي يشكل غالبية جسم الجبل)، كما يصف وظيفته الأساسية في تثبيت الغلاف الصخري للأرض، ويتأكد هذه الوظيفة في اثنين وعشرين آية أخرى، أو دورها في شق الأودية والمفاجأة أو في سقوط الأمطار وجريان الأنهر والمسيول، أو تكوينها من صخور متباينة في الملوان والأشكال والمهيئة.
- 7- آيات قرآنية تشير إلى نشأة كل من الغلافين المائي والهوائي للأرض، وذلك بإخراج مكوناتها من باطن الأرض، أو تصف الطبيعة المرجعية الوقائية لغلافها الغازي، أو تؤكد على حقيقة ظلام الفضاء الكوني الخارجي، أو على تناقص الضغط الجوي مع الارتفاع عن سطح الأرض، أو على أن ليل الأرض كان في بدء خلقها مضاءً كنارها.
- 8- آيات تشير إلى رقة الغلاف الصخري للأرض، وإلى تسوية سطحه وشق الفجاج والمسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها.
- 9- آيات تؤكد على إسكان ماء المطر في الأرض مما يشير إلى دورة المياه حول الأرض وفي داخل صخورها، أو تؤكد على علاقة الحياة بالماء، أو تلمح إلى إمكانية تصنيف الكائنات الحية
- 10- آيات تؤكد على أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعددة عبر فترات زمنية طويلة.
- 11- آيات قرآنية تصف نهاية كل من الأرض والسماء وـما فيهما (أي الكون كله) بعملية معاكسة لعملية الخلق الأول كما تصف إعادة خلقهما من جديد، أرضاً غير الأرض الحالية وسماء غير سماء الـما قبلة.
- هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة للإنسان قبل هذا القرن، بل إن الكثير منها لم يتوصل الإنسان إليه إلا في العقود القليلة الماضية عبر جهود محنية وتحليل دقيق لكم هائل من الملاحظات والتجارب العملية في مختلف جنبات الجزء المدرك من الكون، وإن السبق القرآني في الإشارة إلى مثل هذه الحقائق بأسلوب يبلغ منتهى الدقة العلمية واللغوية في التعبير، والإبهاط والمشمول في الدلالة ليؤكد على جانب هام من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي، ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم معجز في كل أمر من أموره، لأن الموجي السماوي الموحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي نزل بها (اللغة العربية)، ومحفوظ بحفظ الله كلمة وحرباً حرفاً، إما أن الإعجاز العلمي يبقى من أ segue أساليب المدعاة إلى الله في عصر العلم، ذلك العصر الذي لم يبق فيه من وحي السماء إما القرآن الكريم، بينما تعرضت كل الكتب السابقة على ذروله إما للضياع التام؛ أو لضياع الأصول التي نقلت عنها إلى لغات غير تلك التي نزل الموجي السماوي بها، فتعرضت لقدر هائل من التحرير الذي أخرجها عن إطارها الرباني على الرغم من إيماننا بأصولها السماوية، وتسليمنا بصدق تلك الأصول، ومن هنا تنتفع أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية في زمان هي

أحوج ما تكون إلى المهدية المربانية ॥ كما تتضح أهمية دراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله مهما تعددت تلك المجالات العلمية، وذلك لأن إثبات صدق الإشارات القرآنية في القضايا المكونية ॥ مثل إشاراته إلى عدد من حقائق علوم الأرض، وهي من الأمور الممادية الملموسة التي يمكن للعلماء التجربيين إثباتها لادعى إلى المسلمين بحقائق القرآن الأخرى خاصة ما يرد منها في مجال القضايا الغيبية والسلوكية (من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات) والتي لا سبيل للإنسان في الوصول إلى قواعد سليمة لها وإلى ضوابط صحيحة فيها إلا عن طريق بيان رباني خالص لا يدخله أدنى قدر من التصور البشري.